ونلحظ أن هذا القول قد جاء بعد آية السرقة وبعد آية الإعلام بأن له مُلْكَ السموات والأرض . ولذلك كان لا بد من تذييل يخدم الاثنين معاً . ليؤكد سيطرة القدرة . وحين يريد الحق أن يرحم واحداً . فليس فى قدرة المرحوم أن يقول : « لا أريد الرحمة » . وحين يعذب واحداً لن يقول المعذَّب - بفتح الذال - : « لا داعى للعذاب » . فسيطرة القدرة تؤكد أنه لا قدرة لأحد على رَدِّ العذاب أو الرحمة . إذن فالآية قد جاءت لتخدم أغراضاً مُتعددة . فإن حسبناها فى ميزان الأحداث فللحق كل القدرة . وإن حسبناها فى ميزان الزمن ، فكيف يكون الأمر ؟ .

نعرف أن التعذيب للسّرقة قسمان . . تعذيب بإقامة الحَدّ ، وفى الآخرة تكون المغفرة . إذن فالكلام منطقى مُتّسق .

إنى أقول دائماً : إياكم أن تُخدَعوا بأن الكافر يكفر ، والعاصى يعصى دون أن ينال عقابه ؛ لأن من تعوَّد أن يتأبّى على منهج الله ، فيكفر أو يعصى لا بد له من عقاب . لقد تمرَّدَ على المنهج ، ولكنه لا يجرؤ على التَمرُّد على الله .

إن الإنسان قد يتمرد على المنهج فلا يؤمن أو لا يقيم الصلاة ، لكن لا قدرة لإنسان أن يتمرّد على الله ، لأنه لا أحد يقدر على أن يقف فى مواجهة الموت ، وهو بعضٌ من قُدْرةِ الله . وسبحانه وتعالى يحكم ما يريد . وقد أراد أن يوجِد للإنسان اختياراً فى أشياء ، وأن يقهر الإنسان على أشياء ، فيا من مرَّنت نفسك على التمرّد على منهج الله عليك أن تحاول أن تتمرّد على صاحب المنهج وهو الله . ولن تستطيع لا فى شكلك ولا لونك ولا صحتك ولا ميعاد موتك . وليفتح كل مُتمرِّد أذنيه ، وليعرف أنه لن يقدر على أن يَتمرَّد على صاحب المنهج وهو الله . إذن صدق قول الله : « والله على كل شىء قدير » .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ

فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

نأتى فى النّداء بحرف الإقبال وهو « يا » وندخله على « المُنادى » أى أنك تطلب إقباله . فهل نطلب إقباله لمجرد الإقبال أو لشيء آخر ؟ مثال ذلك قول الحق :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إذن النّداء هنا لتلاوة التكليف عليهم . وحين يُنادى الحق سبحانه وتعالى أشرف من ناداهم وهم رُسُله ، نجد أنه نادى كل الرُّسل بمُشخصاتهم العَلَمِيَّة . (يا آدم) ، والمُشخص العَلَمى هو الاسم ، وهو لا يعطى وصفاً إلا تشخيص الذات بدون صفاتها .

وكذلك نادى الحق إبراهيم عليه السلام :

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات)

وكذلك نادى الحق نوحاً :

﴿ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

وكذلك نادى الحق موسى عليه السلام :

﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة القصص)

وكذلك نادى الحق عيسى ابن مريم عليه السلام :

﴿ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

كُل الرُّسُل ناداهم الحق بالمُشَخِّص العَلَمى الذى لا يعطى إلا التشخيص ، ولكن رسول الله صلّى الله عليه وسلم خاتم الرُّسُل ما ناداه الله باسمه أبداً ، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مُشَخِّصات الذات فيقول : (يا أيّها الرسول) ، ويقول : (يا أيّها النبى) .

حقًا إنّ الجميع رُسُل ، ولكنه سبحانه يريد أن يبلغنا أن محمداً صلّى الله عليه وسلم هو الرسول الذى جاء ناسخاً للكُلّ ومؤمناً بالكُلّ ، هو الذى يستحق النّداء بالوصف الزائد عن مُشَخّصات الذات : « يا أيّها الرسول » . وهو الرسول الذى تقوم عليه الساعة . ولذلك نجد خطاب الحق لرسوله دائما : « يا أيّها الرُّسُول » أو : « يا أيّها النبى » ، وهذا نوع من التكريم .

والحق يقول هنا : « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » . أى لا تحزن يا رسول الله من الذين يسارعون فى الكفر . وحين يخاطب الحق رسوله فى ألا يحزن ، علينا أن نعرف على ماذا يكون الحزن ؟ . سبحانه يوضح لرسوله : إياك أن تحزن لأنى معك فلن ينالك شر خصومك ولا يمكن أن أختارك رسولاً وأخْذُلك ، إنهم لن ينالوا منك شيئاً .

وقد يكون حزن النبى صلى الله عليه وسلم حزناً من لون آخر ، اسمه الحزن المُتَسامِى الذى قال فيه الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لأن الحق لو شاء أن يجعلهم مؤمنين لما جعل لديهم القدرة على الكفر .

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

وهل الله يريد أعناقا ؟ لا . بل يريد قلوباً ؛ لأن سيطرة القُدرة بإمكانها أن تفعل ما تريد ، بدليل أن السماء والأرض والجبال وكل الكائنات أتت للخالق طائعة . فلا يمكن أن يتأبّى الكون على خالقه . والقدرة أفادت القهر وأفادت السيطرة والعزة والغلبة فى سائر الكون ، ولكن الله أَحَب أن يأتى عبده ـ وهو السيد ـ للإيمان مختاراً ؛ لأن الإيمان الأول هو إيمان القهر والقدرة ، ولكن الإيمان الثانى هو إيمان المحبة .

وقد ضربنا من قبل المثل على ذلك ولنوضحه : هب أن عندك خادمين ربطت أحدهما فى سلسلة لأنك إن تركته قليلاً يهرب ، وعندما تريده تجذب السلسلة فيأتى ، إنه يأتى لسيطرة قُدرتك عليه والقهر منك ، أما الخادم الآخر فأنت تتركه حُرّاً ويأتيك من فور النداء . فأيهما أحب إليك ؟ لاشك أنك تحب الذى يجىء عن حُب لا عن قهر . وكل أجناس الكون مُسخَّرة بالقدرة ، وشاء الحق أن يجعل الإنسان مُختاراً لذلك قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ﴾

(من الآية ٧٢ سورة الأحزاب)

إذن فقد رفضت كل الأجناس حمل الأمانة . خوفا وإشفاقا من أنها قد لا تستطيع القيام بذلك . والحق يقول لرسوله : « لا يحزنك » فأمّا إذا كان الحزن بسبب الخوف على المنهج منهم ، فالحق ينصره ولن يمكنهم منه . وأما إن كان الخوف عليهم فلا ؛

لأنه سبحانه خلق الإنسان مختاراً غير مقهور على القيام بتعاليم المنهج ، وسبحانه يُحب أن يعرف من يأتيه حُباً وكرامة .

ويقول الحق لرسوله محمد صلّى الله عليه وسلم : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذه رُبوبية التعبير ، فنحن نعلم أن السرعة تكون إلى الشيء ، لا فى الشيء كما قال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

ولكن هنا نجده يقول : « يسارعون فى الكفر » . ولو قال الحق : « يسارعون إلى الكفر » لكان قد ثبت لهم إيمان وبعد ذلك يذهبون إلى الكُفر ، لا . الحق يريد أن يوضح لنا : أنهم يسارعون فى دائرة الكفر . ويعلمنا أنهم فى البداية فى الكفر ، ويسارعون إلى كفر أشد . ونعرف أن « فى » فى القرآن نستطيع أن نضع من أجلها المجلدات . فقد قلنا من قبل قال الله تعالى : (سيروا فى الأرض) .

ولم يقل سبحانه سيروا على الأرض .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وهى ليست أموال المخاطبين ، ولكنها فى الأصل أموال السفهاء . ولكن سبحانه يبلغنا أن السُّفهاء غير مأمونين على المال ، ولذلك يأتى الحق بالوصىّ والقيِّم على المال ويأمره أن يعتبر المال ماله حتى يحافظ عليه . ويأمره بألا يخزن المال ليأكل منه السَّفيه ؛ لأن المال إن أكل منه السُّفيه ودفع له الزكاة ، قد ينضب ويَنْفد . لذلك قال الحق :

﴿ وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

لم يقل ارزقوهم منها ، ذلك أنه سبحانه شاء أن يعلمنا أن الرزق مطمور فى رأس المال ويجب أن يتحرك رأس المال فى الحياة حتى لا ينقص بالنفقة ، وحتى لا تستهلكه الزكاة ، وحتى يبلغ السَّفيه رُشده ويجد المال قد نما . هذه بعض من معطيات « فى » . وهناك آية الصَّلب :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

بعض المفسرين يقولون فى هذه الآية : « لأصلبنكم على جذوع النخل » ونقول : إن الذين قالوا ذلك لم يُفسّروا هذه الآية وكان يجب أن يقولوا فى تفسير ذلك :

لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً يدخل المصلوب فى المصلوب فيه . ومثال ذلك لو جئنا بعدو ثقاب وربطناه على الأصبع بخيط رفيع وأوثقنا الربط ، فعود الثقاب يغوص فى الأصبع حتى يصير وكأنه داخل الأصبع . وعندما يقول الحق : « ولأصلبنكم فى جذوع النخل » فيجب ألا نفهم هذا القول إلا على أساس أنه تصليب على جذوع النخل تصليباً قوياً يُدْخِلُ المصلوب فى المصلوب فيه . وتلك هى العِلّة فى وجود « فى » وعدم وجود « على » .

والحق يقول هنا : « لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » فكأن المسارعة إما أن تكون بـ « إلى » وإما أن تكون بـ « فى » . فإن كانت بـ « إلى » فهى انتقال إلى شىء لم يكن فيه ساعة بدْء السرعة ، وإن كانت بـ « فى » فهى انتقال إلى عمق الشىء الذى كان فيه قبل أن يبدأ المسارعة .

« لا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم » فالإيمان محلّه القلب ، والإسلام محلّه الجوارح ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

. إنهم يسارعون إلى الصف الأول فى الصلاة وهذا إسلام ، أما الإيمان فمحلّه القلب . إذن فالذين قالوا بأفواههم آمنا ، لهم أن يعرفوا أن منطقة الإيمان ليست الأفواه ولكنها القلوب . وهم قالوها بأفواههم وما مرّت على قلوبهم . ومادامو قد قالوا بأفواههم آمنا وما مرّت على قلوبهم فهؤلاء هم المنافقون ، ومعنى ذلك أنهم فى كل يوم ستظهر منهم أشياء تُدخِلهم فى الكفر ؛ لأنهم من البداية قد أبطنوا الكفر ، وبعد ذلك يسارعون فى مجال الكفر .

« من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا » هم إذن صنفان اثنان يسارعان فى الكفر ؛ المنافقون الذين قالوا بأفواههم آمنا ، والذين هادوا . ويصفهم الحق بقوله : « سماعون للكذب » وساعة تسمع مادة « السين والميم والعين » فهذا يعنى أن الأذن قد استقبلت صوتاً من مُصَوِّت ، هذا المُصوِّت إما أن يكون مُتكلماً بالكلام الحقّ فيجذ من الأذن الإيمانية استماعاً بإنصات ؛ ثم يتعدى الاستماع إلى القبول ؛ فيقول المؤمن : أنا استمعت إلى فلان ، لا يقصد أنه سمع منه فقط ولكن يقصد أنه سمع وقبل منه ما قال .

إننا نعلم أن كثيراً من الورعين يسمعون كذباً ، لكن الفيصل هو قبول الكذب أو رفضه . وليس المهم أن يكون الإنسان سامعاً فقط ، ولكن أن يصدق ما يسمع . ونرى فى الحياة اليومية إنساناً يريد أن يصلح شيئاً من أثاث منزله فيأتى بالأدوات اللازمة لذلك ، ويقال هنا عن هذا الرجل : « نجر فهو ناجر » ولا يقال له : « نجّار » ؛ لأن النجار هو من تكون حرفته النِّجارة .

إذن كلمة : سامع للكذب لا تؤدى المعنى ، ولكن « سمّاع » تؤدى المعنى ، أى أن صناعته هى التسمّع ، وعندما يقول الحق : « سمّاعون للكذب سمّاعون لقوم آخرين لم يأتوك » أى ألِفُوا أن يقبلوا الكذب . وكيف يكون مزاج من يقبل الكذب ؟. لا بد أن يكون مزاجاً مريضاً بالفطرة .

وما معنى الكذب هنا ومن هم السمّاعون ؟ إما أن يكون المقصود بهم الأحبار والرهبان الذين قالوا لأتباعهم كلاماً غير ذى سندٍ من واقع من أجل الحفاظ على مراكزهم . وإما أن يكونوا سمّاعين للكذب لا لصالحهم هم ، ولكن لصالح قوم

آخرين . كأنهم يقومون بالتجسس . والتجسس - كما نعلم - يكون بالعين أو بالأذن . وتقدمت هذه الوسائل فى زماننا حتى صار التجسس بالصوت والصورة . وكأن الحق يريد أن يبلغنا أنهم سماعون للكذب ، أى أنهم يسمعون لحساب قوم آخرين . والقوم الآخرون الذى يسمعون لهم هم القوم الذين أصابهم الكبر والغرور واستكبروا أن يحضروا مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهم فى الوقت نفسه لا يطيقون الانتظار ويريدون معرفة ماذا يقول رسول الله ، لذلك يرسلون الجواسيس إلى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم لينقلوا لهم .

أولئك السماعون للكذب هم سماعون لحساب قوم آخرين لم يأتوا إلى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبُّراً . وهؤلاء المتكبرون هم كبار اليهود ، وهم لا يذهبون إلى مجلس رسول الله حتى لا يضعف مركزهم أمام أتباعهم . وعندما يُنقل إليهم الكلام يحاولون تصويره على الغرض الذى يريدون ، ولذلك يقول عنهم الحق : « يُحرِّفون الكَلم من بعد مواضِعهِ » . أى أنهم يُحرِّفون الكلام بعد أن استقر فى مَواضعه ويستخرجونه منها فيهملونه ويزيلونه عن مواضعه بعد أن وضعه الله فيها وذلك بتغيير أحكام الله ، وقال الحق فيها أيضاً من قبل ذلك :

﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

أى أنهم حَرَّفُوا الكلام قبل أن يستقر . « سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه » وهم الذين يقولون لأتباعهم من جواسيس الاستماع إلى مجلس رسول الله : « إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا » . فكأنهم أقبلوا على النبى بهذا ، فإن أخذوا من رسول الله معنى يستطيعون تحريفه فعلوا . وإن لم يجدوا ما يحرفونه فعليهم الحذر .

ومن دراسة تاريخ القوانين الوضعية نعرف معنى السلطة الزمنية . فالقوانين التى تواضع عليها بشر ليحكموا بها نظام الحياة تأخرت فى الظهور إلى الواقع عن نظام الكهنة ، فقد كان الكهنة يَدَّعُون أن لهم صلة بالسماء ولذلك كان الحكم لهم ، أى أن التقنين فى الأصل هو حكم السماء والذى جعل الناس تتجه إلى وضع قوانين خاصة بهم أنهم جربوا الكهنة فوجدوهم يحكمون فى قضية ما حُكْماً . وفى القضية المشابهة يحكمون حُكْماً آخر . لقد كان كلام الكهنة مقبولا عندما ادعوا لأنفسهم

الانتساب إلى أحكام السماء . لكن عندما تضاربت أحكامهم خرج الناس على أحكام الكهنة ورفضوها ووضعوا لأنفسهم قوانين أخرى .

والحكاية التاريخية توضح لنا ذلك : فقد زَنَى أحد أتباع ملك فى العصر القديم وحاولوا أن يقيموا عليه الحد الموجود بالتوراة . لكن الملك قال للكهنة : لا أريد أن يُرجَم هذا الرجل وابحثوا عن حكم آخر .

ورضخ الكهنة لأمر الملك وقالوا : نُحَمِّم وجه الزَّانى - أى نُسَوِّد وجْهه بالحُمم وهو الفحم - ونجعله يركب حماراً ووجه إلى الخلف ونطوف به بين الناس بدلاً من الرَّجم . وهكذا أعطت السلطة الزمنية السياسية الأمر للسلطة الزمنية الدينية ليُغيِّروا فى القوانين . فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة حاولوا أن يستغلوا وجوده فى استصدار أحكام فيها هوادة ولين . وعرضوا عليه بعضا من القضايا من أجل ذلك ، فإن جاء الحكم بالتخفيف قبلوه ، وإن كان الحكم مُشدَّداً لم يقبلوه . وتكررت مسألة الزِّنا . وحاولوا الحصول على حكم مخفف من سيدنا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم .

وجاء رسول الله بالحكم الذى نزل من السماء وهو الرَّجم . ولكنهم قالوا للرَّجم لا . يكفى أن نجلده أربعين جلدة وأن نُسود وجهه وأن نجعله يركب حماراً ووجهه للخلف ويُطاف به . وهنا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أليس عندكم رجل صالح له علم بالكتاب ؟ وهنا صمتوا . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل تعرفون شابا أمرد أبيض أعور يسكن « فدك » يقال له : « ابن صوريا » . فقالوا : نعم ، هو أعلم يهود على وجه الأرض . فأمر الرسول بإحضاره ليرى الحُكم النازل فى الزِّنا بالتوراة ، وجاء الرجل وناشده رسول الله بالذى لا إله إلا هو وبحق من أرسل موسىٰ ، وبحق من أنزَل التوراة على موسىٰ ، وبحق من فلق البحر ، وبحق من أغرق فرعون ، وبحق من ظللهم بالغمام . وأراد صلى الله عليه وسلم أن يُزلزل فيه كل باطل وأن يشحنه بالطاعة حتى ينطق الحق ، فقال ابن صوريا : نعم نجد الرَّجم للزِّنا . وهنا سَبَّ اليهود الرجل الصالح .

لقد أرادوا أن يحصلوا على حُكم مُخفف من رسول الله ليُنقذوا الزانى صاحب المقام

العالى ، وكذلك الزانية ذات الحسب والنسب ؛ لذلك قال الحق على لسانهم : « إن أوتيتم هذا ». أى التخفيف المراد فخذوه، وإن وجدتم العقاب القاسى فاحذروه ولا تقبلوه .

إذن فهم لم يذهبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ابتغاء الحق ولكنهم يبتغون التخفيف . فإن وافق الحكم هواهم قالوا : إن محمداً هو الذى حَكَم ، ومن العجيب أنهم أعداء لمحمد وكافرون به . وبرغم ذلك يُحكّمونه .

هذه الواقعة يرويها الإمام مسلم رضى الله عنه وهى : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بيهودى ويهودية قد زنيا فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء يهود فقال : ما تجدون فى التوراة على مَنْ زنى ؟ قالوا : نسوّدُ وجوههما ونحمّمهما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ، ويُطاف بهما ، قال : (فأتوا بالتوارة فاتلوها إن كنتم صادقين) قال : فجاءوا بها ، فقرأوها ، حتى إذا مرّ بآية الرجم وضع الفتى الذى يقرأ يده على آية الرجم وقرأ ما بين يديها وما وراءها ، فقال له عبدالله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: مُرْهُ فليرفع يده، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرُجما ، قال عبدالله بن عمر : كنت فيمن رجمهما فلقد رأيته يقيها من الحجارة بنفسه »[1] .

إنهم يريدون الحكُم السهل الهين اللين . وقال البعض : إن سبب نزول هذه الآية هى قصة القَوَد . والقود هو القصاص .

وقصة القود فى إيجاز هى ـ كما رواها الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنه ـ أن طائفتين من اليهود هما بنو النضير وبنو قريظة كانتا قد تحاربتا فى الجاهلية ، فقهرت بنو النَّضير بنى قُريظة ، فكانت النَّضير وهى العزيزة إذا قتلت أحداً من بنى قُريظة وهى الذَّليلة لم يُقِيدوهم أى لم يعطوهم القاتل ليقتلوه بقتيلهم . إنما يعطونهم الديَة . وكانت قُريظة إذا قَتَلت أحداً من بنى النَّضير لم يرضوا منهم إلا بالقود . فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة تحاكموا إليه فى هذا الأمر فحَكَم بالتَّسوية بينهم ، فسَاءَهم ذلك ولم يقبلوا . وأى قصة منها هى مؤكّدة للمعنى .

---

(١) رواه مسلم .

ومن بعد ذلك يقول الحق : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » والفتنة هى التعذيب بالنار ، وسبحانه يقول :

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

والفتنة أيضاً هى الابتلاء والاختبار ، ويقال : « فتنت الذهب » أى وضعت الذهب فى بوتقة وحوّلته بالحرارة العالية من جسم صُلب إلى سائل حتى تستخلصه من المواد العالقة الشائبة التى فيه ليصير نقياً . والفتنة فى ذاتها ليست مذمومة . ولكن المذموم منها هو النتيجة التى تصل إليها ، أينجح الإنسان فيها أم يرسُب ، لأن الاختبارات التى يمر بها الإنسان كلها هى فتنة ، والذى ينجح تكون الفتنة بالنسبة إليه طيبة . والذى يرسُب ويفشل فالفتنة بالنسبة إليه سيئة . وعندما يريد الله فتنة بشر أى يريد اختبارهم : أيأتون طوعا واختياراً أم لا ؟

ومادام الحق سبحانه وتعالى أعطى للإنسان قدرة الاختيار حتى يُثبت صفة المحبوبية فسبحانه أراد ذلك ، ولا أحد بقادر أن يجعل الإنسان مقهوراً . وقد أراده الله مختاراً وأن يبتلى وأن يختبر . اينجح أم يرسُب ، أيكون مؤمناً أم كافراً :

« ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . وجعل سبحانه ذلك قانونا لخلقه بمنتهى الوضوح ، وهناك جانب فى الإنسان مُسخّر ، وجانب آخر مُخيّر . « ومَن يُرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا » . أى أن أحداً لا يجرؤ أن يغير نواميس الكون ولن يغير الله نواميس الكون من أجل أى أحد ؛ لأن النواميس لا بد أن تسير كما أرادها الله حتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد عرفنا ما حدث فى أُحُد ؛ عندما تخاذل الرُّماة ولم يستمعوا إلى نصيحة القائد الأعلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ؛ أَغيّر الله سُنَّته من أجل وجود حبيبه معهم ؟ لا ، وانهزموا على رغم وجود رسول الله معهم ؛ لأن الله أراد للسُّنة الكونية أن تسير كما هى من أجل إصلاح الأمر . فلو فُرِض أنهم انتصروا من أجل خاطر النبى ، ماذا يكون الموقف فى أوامره صلى الله عليه وسلم فيما بعد ؟ كان من الممكن أن يقول شخص منهم : « خالفناه وانتصرنا » . إذن لا بد لسُنَّة الله أن تُنفّذ .

﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

لماذا لم يرد الله أن يُطهِّر قلوبهم ؟ لأنهم منافقون . وفي قلب المنافق مرض . وعندما تأتى أحداث ينتفع بها المسلمون فالمنافق يزداد حِقداً ومَرضا لأنّ قلبه ممتلىء بالغل ، ولا يريد الله تطهير قلب إنسان إلا أن يقبل على الله ولذلك قال تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وقال سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

فهل عدم هداية الله لهم نشأت أولاً ، ثم نشأ الكُفر ، أو نشأ الكُفر منهم فجاء عدم الهداية ؟ نعلم أن عدم الهداية مرتبة على أنه ظالم أو كافر ، وقلنا من قبل: إن هناك إرادة كونية وإرادة شرعية . والإرادة الكونية هى ما يحدث فى كون الله . ولا شيء قد حدث في كون الله غصبا عن الله . والاختيار خلقه الله فى الإنسان ليصير الإنسان مُخيراً بين الكُفر والإيمان . ومادام الحق قد خلق الإنسان مُختاراً لهذا أو لذلك إذن فهو سبحانه مُريد كَوْنيًّا ما يصدر عن الإنسان اختياراً كفراً أو هدايةً . لكن أمُريد هو سبحانه ذلك شرعاً ؟ لا .

إن الشرع أمر سماوى إما أن يُنفِّذه العبد وإما أن يعصيه . ونعرف أن هناك أشياء مُرادة كونياً وأشياء مُرادة شرعيا . والمُراد الكونى هو الذى يكون : أما الإنسان فقد خلقه الله وله الاختيار ، فالذى يسرق لا يسرق غصبا عن الله ولكن ما أعطاه له الله من اختيار ومن طاقة ، إما أن يوجهها إلى الخير وإما إلى الشر .

ونحن حين ننظر إلى الساعة التى نضعها حول المعصم وقد صنعها الصانع صالحة

لأن يديرها الإنسان على توقيت أى بلد ، فهل هذا يتم غصبا عن الصانع ؟ لا . وكذلك جهاز « التليفزيون » ؛ إن أذعنا فيه برامج دينية فهو صالح للهدف ، وإن أذعنا فيه حفلة راقصة فهو صالح لذلك أيضا . والذى صنع التليفزيون جعله صالحاً لهذا ولذاك ، المهم هو توجيه الطاقة وكذلك الإنسان . والإرادة الكونية هى كل ما يكون فى ملك الله ، والإرادة الشرعية هى كل ما يكون فى شرع الله « افعل ولا تفعل » . ومادام هناك أمرٌ كونى وأمر شرعى فالكون قد أوجده الله لخدمة المؤمن والكافر والعاصى ، لكن الأمر الشرعى جعله الله للمؤمن .

إذن فإيمان المؤمن أراده الله كونا ، لأنه سبحانه قد وضع الإيمان منهجا ، وأراد الله إيمان المؤمن شرعا . وكفر الكافر لم يتم غصبا عن الله . ولكن الإنسان بخلْقِه مختاراً . صار كُفره أمراً كونياً ، ولكنه غير مُراد شرعاً ، فكفر الكافر مُراد كونا غير مُراد شرعا . وإيمان الكافر غير مُراد كوناً وكفر المؤمن غير مُراد كونا . وبهذا نكون أمام أربعة أقسام فى المُراد كونا وشرعا . وهذه هى القسمة العقلية .

إذن من يُرِد الله فتنته كوناً فلا راد لإرادة الله ؛ فإذا لم يطع الشرع ، فذلك لأنه مخلوق صالح للطاعة وصالح للمعصية .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلىٰ ـ الوالد يعطى لابنه جنيها ويقول له : أنت حُر فى هذا المبلغ فإن اشتريت مصحفا أو كتاب دين أو شيئاً تأكله أنت وإخوتك فسأكافئك وأستأمنك على أشياء كثيرة . أما إن اشتريت ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » فسأغضب منك .

وحين يذهب الولد ليشترى ورق اللعب المُسمّى « كوتشينة » ، هل اشترى ذلك غصبا عن أبيه ؟ لا . لكن الولد يصبح غير محبوب من أبيه . هذا هو الفارق بين المُراد كونا والمُراد شرعا . وبين المُراد كونا لا شرعا . والمُراد شرعا لا كونا .

« أولئك الذين لم يَرِد الله أن يُطهِّر قلوبهم » كان ذلك كونا ؛ لأنه سبحانه خلقهم قابلين للتطهير وقابلين لغيره ، فإن فعلوا أى شىء فهم لن يفعلوه غَصبا عن الله ؛ لذلك يذيل الحق الآية : « لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » فكأن

معنى ذلك أن فى قلوبهم أشياء ضد الطهارة ، ولهم فى الدنيا خزى . والخزى يطلق على الفضيحة ويطلق على الاستحياء ، والمعنيان يلتقيان . وهنا فى مجال هذه الآية : أى خزى وأى فتنة ؟ إنها فتنان ؛ المنافقون واليهود . وكان المنافقون كلما فعلوا شيئا ينفضح . وعندما يبيِّتون أى شىء فإن الله يخبر رسوله بما يبيِّتون .

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة محمد)

وكذلك الذين هادوا : يأتيهم الخزى أى الافتضاح ، أى أن يصيروا إلى المُسترذل بعد أن كانوا فى المُستحسن . والرسول صلى الله عليه وسلم دخل المدينة واليهود سادة هذه البقعة ؛ سادتها علما لأنهم أهل كتاب ، أما الأوس والخزرج فأميون لا يعرفون شيئا. وكان اقتصاد المدينة فى أيدى اليهود، من مال وصنعة وزراعة. وعنجهية الجاه. وعندما يأتى الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة يجدهم السادة ، ثم ينفضح أمرهم وكذبهم ، ويتم إجلاؤهم ، وتُسبى نساؤهم ويُقتل بعضهم . وعندما يدبرون كيدا لرسول الله ، يفضحهم الله ، وكل ذلك خزى ، وليس الخزى هو الجزاء الوحيد لهم ، بل يلقون فى الآخرة عذاباً أليماً .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وفى اللغة ألفاظ مفردة ، مثال : « سجنجل » وتفتح القاموس فتجد معناها

« البلور » ، وكذلك الصفا والمروة ؛ وعندما تبحث فى القاموس عن كلمة « مروة » تعرف أن معنى اللفظ بعيد عن النسبة ، فأول عمل للغة أن تعرف معنى الألفاظ بعيداً عن نسبتها . ومهمة القاموس أن يشرح لك معنى اللفظ بعيداً عن النسبة دون إثبات أو نفى ، مثال ذلك « الجو » معناها هو ما يحيط بك من هواء أو غير ذلك ، لكن القاموس لايشرح هل الجو مُكفهر أو صافٍ أو باردٌ .

وإن تقدمنا مرحلة أخرى وأخذنا اللفظ لنصنع له نسبته ، كأن نقول : « الجو صحو » ، هنا ننتقل من فهم معنى كلمة « جَوّ » ، إلى أننا نسبنا الصحو إليه . والكلام المفيد يأتى فى النِسب . ولا تأتى النِسب إلا بعد معرفة معانى الألفاظ . والنِسب تعنى أن ننسب شيئا إلى شىء ، كأن نقول : « محمد مجتهد » هنا نسبنّا لمحمد الاجتهاد ، وذلك بعد أن عرفنا معنى كلمة « محمد » بمفردها ، ومعنى « مجتهد » بمفردها .

إذن الكلام المفيد يتأتى فى النسب . وقد تكون الإفادة بضميمة كلمة إلى ما سبقها ، فعندما يسألك إنسان : « من عندك » ؟ فتقول : « محمد » ؛ هذا القول أفاد ؛ لأنه انضم إلى كلمة أخرى فصار المعنى : « محمد عندى » .

إذن هناك نسب ، والنسب هى أن تنسب حكماً إلى شىء إما إيجابا وإما نفياً .

والنسبة تنقسم إلى قسمين ؛ نسبة واقعة ، ونسبة غير واقعة . وإن كانت النسبة واقعة فهل تعتقدها ؟ وهل تستطيع أن تقيم عليها دليلاً ؟ إن كانت النسبة الواقعة ومقام عليها الدليل تكون علماً . وإن كانت نسبة وواقعة وأنت تعتقدها ولا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تقليد ، مثل الطفل الذى يقلد أباه فيقول : « الله أحد » ، والطفل فى هذه الحالة لا يستطيع أن يقيم على هذه النسبة دليلاً .

إن العلم أعلى مراتب النسب لأنه نسبة معتقدة وواقعة وعليها دليل . أما إذا كانت نسبة معتقدة وغير واقعة ، فهذا هو الجهل ؛ لأن الجاهل هو الذى يعرف الشىء على غير وجهه الصحيح . أما الأمى فهو الذى لا يعرف شيئا ونجد صعوبة فى الشرح للجاهل ، مثال ذلك الذى يقول الأرض مبسوطة ويدافع عنها ، إنه يقول نسبة يعتقدها ، ولكنها غير الواقع لأنها كروية .

والجهل ـ إذن ـ أن تعرف نسبة تعتقدها وهى غير واقعة . ولا يرهق الدنيا غير الجاهل ، لا الأمى ؛ لأن الأمى له عقل فارغ يكفى أن تقول له الحقيقة فيصدقها ، أما الجاهل فيحتاج إلى أن نخلع من أفكاره الفكر الخاطىء ونضع له الفكر الصحيح .

أما إن كانت النسبة غير واقعة . فالنفى فيها يساوى الإثبات ، وهذا هو الشك . وإن كانت هناك نسبة راجحة فهو الظن . والنسبة المرجوحة هى الوهم . إذن هناك عدد من النسب : نسبة علم ، نسبة تقليد ، نسبة جهل ، نسبة شك ، نسبة ظن ، نسبة وهم . وعلى ذلك يكون الكذب نسبة غير واقعة ، فإن كنت تعتقدها فأنت من الجاهلين .

ويقابل الكذب الصدق ، وعندما يقول الحق : « سماعون للكذب » . فالنسبة هنا غير مطابقة للواقع . ويقتنص الملبِّسون بعض النسب التى تأتى فى بعض من أسلوب القرآن ويقولون : فى القرآن كلام لو محّصناه لوجدناه غير دقيق . مثال ذلك :

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

كلام المنافقين هنا قد طابق كلام الله ، ولكن لماذا يقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

النسبة واحدة ، لكن الله يكذب المنافقين . وإن فطنا إلى قول الله حكاية عنهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ١ سورة المنافقون)

أى أن الله يُكذِّب شهادتهم ، لأن محمداً رسول الله بالفعل ، ولكنهم كاذبون لأنهم لا يعتقدون ذلك ، فالشهادة هى ما يوافق اللسان ما فى القلب .

إذن قوله الحق : « سماعون للكذب أكالون للسُّحت » أى أن عملهم الاستماع

للكذب ، وأكل السُّحت وكأنهم يرهقون إن أكلوا حلالاً ، وأكّال صيغة للمبالغة ؛ وتكون إما فى الحدث ، وإما فى تكرار أنواع الحدث . فيقال : « فلان أكال » ، و« فلان أكول » وهو الإنسان الذى يأكل بشراهة أو يأكل كثيراً ، والمبالغة - إذن - إما أن تكون فى الحدث وإما فى تكرير الحدث .

« أكّالون للسُّحت » ومادة « سَحت » تعنى « استأصل ومحا » ، ولكنها تزيد أنها استأصلته استئصالاً لم يبق له أثراً وتعدى الاستئصال إلى ظرفه . مثال ذلك عند ظهور بقعة من زيت أو طعام على ثوب ، نستطيع استئصال البقعة ، ونستطيع المبالغة فى استئصالها إلى أن تنحت من الثوب . والسُّحت استئصال مبالغ فيه لدرجة الجوْر على الأصل قليلاً . أى يستأصل الذى جاء ومعه بعض من الأصل أيضاً ؛ لذلك جاء المفسرون إلى هذا المعنى فى شرح الرِّبا لأن الله يصفه بالقول :

﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا ﴾

(من الآية ٧٦ سورة البقرة)

والربا فى مفهومنا أنه زيادة ، ولكن الحق أوضح لنا أنه ليس بزيادة ؛ لأنه يَدْخل ويستأصل ويأكل ويكحت أصل المال . وظاهر الرِّبا الزيادة وباطنه محق واستئصال .

أما الزكاة فظاهرها نقص ، ولكنها نماء ، وبذلك نرى اختلاف مقاييس الخلق عن مقاييس الحق . والمثل الواضح : أن النفس تلتفت دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا تلتفت إلى رزق السلب . فرجل راتبه خمسمائة جنيه ، وآخر راتبه مائة جنيه ، صاحب الراتب البالغ الخمسمائة فتح الله عليه أبواباً تحتاج إلى ألفٍ من الجنيهات ، والذى يأخذ مائة جنيه سَدَّ الحق عنه أبواباً لا تأخذ منه كل راتبه بل يتبقى له عشرة جنيهات .

هناك - إذن - رزق إيجاب يزيد الدخل ، ورزق سلب أن يسلب الحق عنك المصارف فى المصائب والمهالك ويبارك لك فيما أعطاك .

والسُّحت هو كل شيء تأخذه من غير طريق الحلال ؛ كالرشوة أو الربا أو السرقة أو الاختلاس أو الخطف . وكل أنواع المقامرة والمراهنة ، كل ذلك اسمه سُحْت .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » وهذا القول دليل على أن أُذُنَهُم اعتادت سماع الكذب ويقبلون عليه . وعندما نقول نحن فى الصلاة : « سمع الله لمن حمده » ، أى أننا ندعو الله أن يقبل الحمد . وهم سماعون للكذب أى يقبلون الكذب . والسماع جارحة ، والأكل بناء ما به الجارحة لأنه مقوم لها . مثلما يأكل لينمو ، وإن كان ناضجاً يحفظ له الطاقة والقدرة .

فالنمّو ـ إذن ـ معناه أن يدخل جوفه أكثر مما يخرج منه . وبعد فترة يدخل إلى جسمه على قدر ما يخرج منه ، ثم الشيخوخة نجد فيها أن ما يخرج أكثر مما يدخل . وماداموا سماعين للكذب أكّالين للسُّحت ، فهم فى بوارٍ دائم ، لأن أكل السُّحْت حيثية من حيثيات الاستماع المصدِّق للكذب ؛ لأنهم قد بنوا ذرات أجسادهم من حرام ، فكيف ترفض آذانهم الكذب ؟ بل آذانهم تستدعى الكذب ، وألسنتهم تحترفه . وعيونهم تستدعى المحارم ، وأيديهم تستدعى السرقة ، إنها الأبعاض التى بناها أصحابها من حرام .

ولم يقل الحق عنهم : « سامعون » ، بل قال : « سماعون » أى جعلوا صناعتهم أن يتسمعوا ، وهم الجواسيس ، وإلا فإذا كان الأمر غير ذلك لكان كل من سمع كذبا يُعَد من هؤلاء . والقول مقصود به من جعل السماع صنعة له ، ولا يجعل إنسان السماع صنعة له إلا إذا كان عينا لغيره ، والعين للغير يتلصص على أمانة المجالس ، ولكل مجلس أمانة . فإذا ما حضر إنسان مجلسا فليس له أن ينقل ما فى ذلك المجلس إلى غيره إلا أن يكون ذلك هو صناعته ، وتلك هى مهمته .

« سماعون للكذب أكّالون للسُّحْت » وهنا قضيتان . فهل السماع للكذب سببه أكل السُّحت ، أم أكل السُّحت سببه السماع للكذب ؟

إن الحق سبحانه وتعالى حينما خلق الإنسان من طينة الأرض وصوره على شكل آدم نفخ فيه من روحه ، وحين صوره من طينة الأرض جعل كل مقومات حركة حياته من طبيعة طينة الأرض ، فإذا ما أخذ الإنسان شيئاً من حِلٍ ، اعتدلت الذرات فى نفسه على الهيئة التى خلقها الله . وإن تدخل فيها بحرام جعل فى الذرات اختلالا تكوينيا . وهذا الاختلال التكوينى هو الذى جعل آكل الحرام سماعا للكذب . ولو لم

يكن فيه ذلك الاختلال التكوينى الذى صنعه بنفسه لما سمع الكذب أبداً .

أو أنه عندما أكل السُّحت صار سماعا للكذب . أو سمع كذبا فصار أكّالاً للسُّحت . ولنلاحظ أن الحق لم يقل : « آكل للسُّحت » ، ولم يقل : « سامع للكذب » ؛ ولكنه قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » أى أنهم تعودوا سماع الكذب وتعودوا أكل السُّحت ، فالواحد منهم أخذ حراما من أول الأمر ، وعندما صار أكالا وسمّاعًا للكذب فى آن واحد ، اختلت ذرّات تكوينه ، ولم يعد فى أعماقه نور ليرفض الكذب . بل أقبل عليه ، ويغريه الكذب ثانية بأن يأكل السُّحت ، والأمر دائر بين سماع كذب وأكل سحت .

وقضية الكذب هى قضية صراع الباطل مع الحق . ومادام الكذب غير مطابق لوازع كونى أو لواقع منهجى تكليفى فهذا يصنع خللاً فى الكون . وحينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يضرب لنا المثل فى ذلك جاء بالمثل فى أمرٍ حسى حتى نراه جميعا :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

أى أن كل وادٍ تحمَّل على قدر طاقته . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

فقبل أن ينزل السيل من على الجبال إلى الوديان ، يأخذ كل الأشياء التى تصادفه على الجبل من آثار الرياح ، ومن أوراق النبات ، فينزله إلى الوادى ، وتلك هى الأشياء التى تصنع الزَّبَد ونقول عنه فى لغتنا العامية : « الرّغاوى » .

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

و« رابياً » أى عائماً وعاليا وطافيا فوق المياه ، لماذا ؟ لأنه مادام زبداً ففيه فقاقيع هواء تجعل حجمه أكبر من وزنه . وتصبح كثافته أقل من المياه ؛ لذلك يطفو فوقها . وماذا يكون الموقف بعد ذلك ؟

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ومن العجيب أنه سبحانه جعل المثلين فى الماء والمضاد له وهو النار ، فالماء يأتى بزبد وغثاء يطفو على المياه ، وكذلك النار حين ندخل فيها المعادن . ومن رأى الحداد ينفخ فى كيره على قطعة من الحديد يرى الخبث ، والمواد الغريبة الممتزجة بالحديد والتى تنفصل أثناء الصهر عن الحديد ليصير صافيا . إذن فهناك زبد فى الحديد تخرجه النار عند صهره ، وزبد يطفو فوق الماء .

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ولهذا نرى الباطل وقد أتى عليه زمن ليطفو فوق السطح ، ويخرج الخَبَث طافيا على أصيل الحديد . لكن أيظل الباطل كذلك ؟ يُطمئِننا الحق أنه يحمى الحق فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

وحين نرى الباطل وقد طفا على السطح نفاجأ بعد وقت من الزمن أن الزبد ينتهى ويصبح الماء صافياً ، وكذلك الزبد الذى يطفو على الحديد ، ينفضه الحديد ليبقى صافياً . فإذا رأينا الباطل مرة يعلو ، فلنعلم أنه لا بقاء لهذا العُلو ؛ لأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض .

ولماذا لا يُعلن الحق عن نفسه من البداية ؟ أراد الله ذلك ليجعل الباطل من جنود الحق ، ولو لم يَعَض الباطل الناس ويُتعبهم أيتجهون إلى الحق ؟ لا ؛ لذلك كان لا بد أن يأتى إليهم الباطل ويتعبهم ليبحثوا عن الحق . وهكذا نرى الباطل كجندى من جنود الحق . وضربنا المثل من قبل وعرفنا أن الألم عند المريض من جنود العافية ، فلولا ذلك الألم لاستشرى الداء دون أن يشعر المريض ، فكأن الألم يلفته إلى موضع الداء ويدفعه للبحث عن وسائل الشفاء . وبذلك يتعرف على حلاوة العافية .



إذن فالباطل من جنود الحق والألم من جنود الشفاء ؛ لأن أمور الحياة لو سارت على وتيرة واحدة لما عرف الإنسان أوجه الحياة ، فلو لم يأتِ الألم إلى المريض لأكله المرض . فإذا كان الألم من جنود الشفاء ، فالكفر أيضاً من جنود الإيمان ؛ لأننا عندما نرى الكُفر ونشهد آثار الكُفر فساداً فى المجتمع ، نتساءل : ما الذى يخلّصنا من ذلك ؟ ونعرف أن الذى يخلصنا من الفساد هو الإيمان .

وأكرّر دائماً : كلمة الكُفر بذاتها هى الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكُفر هو السَّتْر ، ومادام الكفر هو السَّتر ، والكافر يستر الإيمان ، وظهور الكفر على السطح دليل وجود الإيمان فى الأصل .

ومادام الحق قد قال : « سماعون للكذب أكّالون للسُّحت » فلا بد بعد هذا التشخيص أن يرسم لرسوله أسلوب التعامل معهم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً » . فأنت يا رسول الله بالخيار بين أن تحكم بينهم فى القضية التى جاءوا من أجلها أو تعرض عنهم ، فليس عليك تجاههم إلزام ما ؛ لأنهم السماعون للكذب الأكّالون للسُّحْت . وهم حينما يأتونك يا رسول الله طلباً لحكم إنما يفعلون ذلك لا رغبة فى معرفة الحق ولا هم يلتمسون العدل . بل جاءوك مظنة تيسير أمر الباطل وأكل السُّحت لنفوسهم . وقد طلبوا الحكم فى قضية الزِّنا وعندهم فى التوراة كان الرَّجم عقاباً للزنا .

لقد ذهبوا لرسول الله لأنهم أرادوا أن يستروا حكم الزِّنا فى التوراة ، والاكتفاء بالجلد وتسويد وجه الزانى وركوبه حماراً فى الوضع العكسى بحيث يكون وجهه فى اتجاه الذيل وقفاه فى اتجاه رأس الحمار ، وأن يطوفوا بالزانى وهو على هذه الهيئة حول البلدة . ولما لم يسمعوا ذلك الحكم من الرسول ابتعدوا عنه . إذن هم يطلبون التخفيف لأنهم كانوا سماعين للكذب وأكّالين للسُّحت . ولأن الذى سيطبق عليه الحد رجل له جاه وله مكانة وهم يريدون التقرب إليه بتخفيف العقاب عنه . وهل هناك تعارض بين قول الحق فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها وبين قول الحق :

﴿ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة المائدة)

لا تعارض . والبعض يقول : إن فى قوله الحق : « فاحكم بينهم بما أنزل الله » إلزاماً . ونقول : المعنى الواضح هو أنك يا رسول الله ، إن رجحت جانب أن تحكم وتقضى بينهم فاحكم بما أنزل الله ، ولننظر إلى الأداء القرآنى لأن المتكلم إله وحكيم : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . ونلحظ أن الأمر هنا جاء بطريقة تؤكد أن الإعراض ممكن ؛ لأنهم أرادوا أن يحكم لهم رسول الله على هواهم ، وطمأنه الله بأنه سيحميه من شرهم إن أعرض عنهم ، وكأن الحق يقول لرسوله : إياك أن تفكر حين تعرض عنهم أنهم سينالونك بالشر لأنك لم تحقق لهم التيسير الذى ابتغوه عندك « وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا » وإياك أن تجعل الضرر منهم مُرجِّحاً للحكم ؛ فأنت بالخيار ؛ إما أن تحكم وإما أن تعرض . ولا تخش من شرهم لأن الذى أرسلك يحميك .

« وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين » والحكم فى هذه الآية يأتى كالقوس فى البداية وفى النهاية ، والحكم بينهم يكون بالقسط ؛ أى بالعدل . والعدل ليس كما يراه الهوى ولكن حسب ما أنزل الله . أى أن الله يحب الذين يزيلون الجور . ومادام الحكم بالعدل يأتى ليزيل الجور ، فكأنه كان من قبل جورٌ مُقنن ؛ إذن فـ « أقْسَط » أى أزال جورًا مقننًا وأعاد توازن الميزان ليعود الانسجام بين الإنسان والكون . والكون كله يسير بميزان ؛ الأرض تدور والشمس تؤدى مهمتها ، ولا كوكب يصطدم بكوكب آخر :

﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة يس)

فإن أردتم أن تستقيم لكم أموركم الاختيارية ، فانظروا إلى الأمور الإجبارية التى حولكم ، فإن كانت بنظام وميزان واعتدلت الأمور ، اعدلوا ـ إذن ـ فى إدارة شئونكم حتى تنسجموا كما انسجم الكون ، ولذلك نقرأ قوله تعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ ﴾

(سورة الرحمن)

أمامكم الموازين العليا فى الكون ، ولا تستطيعون إفسادها لأنها تسير بنظام لا دخل لكم به ؛ لذلك عليكم أن تتعلموا منها وأن تديروا أمور حياتكم بميزان حتى تستقيم أموركم الاختيارية .

﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن رأيت حولك كونا غير مُضطرب ، وغير مُتصادم ، ويؤدى حركته دون تعارض أو تصادم ، فافهم أنه قائم على ميزان الحق ، ووضع سبحانه لك ميزاناً فى الأمور الاختيارية ، والمرجحات الاختيارية هى أحكام التكليف من الله ، فإن أردت أن تستقيم لك الأمور الاختيارية فسر بها على الميزان الذى وضعه الله .

ثم يلفتنا الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك بقوله :

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝٤٣ ﴾

يوضح سبحانه : كيف يأتون طلبا للحكم منك وعندهم التوراة ، وهم لم يؤمنوا بك يا محمد رسولاً من الله ، فكيف يرضاك من لم يؤمن بك حَكَماً ؟ لا بد أن فى ذلك مصلحة مناقضة لما فى التوراة ، ولو لم تكن تلك المصلحة مناقضة لنفذوا الحكم الذى عندهم ، وهم إنما جاءوا إليك يا رسول الله طمعا فى أن تعطى شيئا من التسهيل وظنوا ـ والعياذ بالله ـ أنك قد توفر لهم أكل السُّحت وسماع الكذب .

« وكيف يحكمونك وعندهم التوراة » وهى مسألة عجيبة يجب أن يُفطن إليها ؛ لأن عندهم التوراة فيها حكم الله ، فلو حكموك فى أمر ليس فى التوراة لكان الأمر مقبولاً ، لكن أن يحكموك فى أمر له حكم فى التوراة ، وبعد ذلك يطلعك الله عليه